



الضخائر ٦٨

الهُوَاءُ وَالسُّوَاءُ

لابي حيان التوحيدى ومسكويه

تقديم

أ.د صلاح دسوقي

نشره

السيد محمد حنقر

المركز العربي

الهيئة العامة لقصور الثقافة



الضخائر

رئيس مجلس الإدارة

محمد غنيم

أمين عام النشر

محمد السيد عيد

الإشراف العام

فكري النقاش

رئيس التحرير

أ.د. محمود فهمي حجازي

نائب رئيس التحرير

أ.د. عبد الحكيم راضي

مدير التحرير

د. محمود فؤاد

سكرتير التحرير

رأفت زريق الشرقاوي

للرسائل باسم مدير التحرير على العنوان التالي
١٦ أش أمين سامي - قصر الصيني - القاهرة
رقم بريدى ١٢٥٦١

مستشارو التحرير

أ.د. إبراهيم عبد الرحمن

أ.د. السباعي محمد السباعي

أ.د. حسنين محمد ربيع

أ.د. حسين نصار

أ.د. عبد الله التطاوى

أ.د. عبده على الراجحي

أ.د. محمد حمدى إبراهيم

أ.د. محمد عونى عبد الرؤوف

تعريف

عزيزى القارىء.. هذه حلقة جديدة من سلسلة «الذخائر»، وهى حلقة متميزة سواء بمادتها أو بظروف إخراجها فى هذه الطبعة. هذه الحلقة هى كتاب (الهوامل والشوامل) الذى اجتمع فيه، وله، ما قل أن يجتمع لكتاب آخر.

أمّا ما اجتمع فيه فهو كونه حصيلة تلاقح فكرى، وربما تجاذب، بين اثنين من كبار المفكرين عبر تاريخ التراث العربى الإسلامى هما : (أبو حيان التوحيدى ت ٤١٤هـ)، (وأبو على مسكويه ت ٤٢١هـ)، ومن هنا جاء طابعه المميز، ففضلا عن طرافة موضوعات الحديث وثرانها، وعمق الفكرة ووضوح العبارة وسلاستها.. يطالعنا هذا النسق الخاص فى التأليف الذى قُدمت عبره أفكار المؤلفين، أعنى نسق السؤال والجواب، مما يجعل قارئه على ذكر دائما من موضوع الحديث فى كل موضع من مواضع الكتاب من جهة، ويشعره، من جهة ثانية، بأهمية هذه الموضوعات التى شغلت (أبا حيان) فجعل منها محاور لأسئلته، واحتشد لها (مسكويه) فاتخذ منها مقاصد لإجاباته.

وأمّا ما اجتمع لهذا الكتاب فهو هذه النخبة الفذة من رجال العلم سواء من حمل عبء تحقيقه وإخراجه للناس فى طبعته الأولى، ومن تفضل بكتابة مقدمته وتعريف القراء به فى هذه الطبعة.

لقد صدر الكتاب فى أول الخمسينيات (١٩٥١م) عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق كل من المرحوم الأستاذ أحمد أمين والرحوم الأستاذ أحمد صقر. وليس جديداً على القارئ أن الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م) كان واحداً من الرواد فى حياتنا الجامعية ، كما أنه واحد من أعلام نهضتنا الأدبية والفكرية الحديثة فى مصر والعالم العربى، وذلك بما قدم من مؤلفات وتحقيقات وترجمات، نذكر منها- فى مجال التأليف- فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، والنقد الأدبى. كما نذكر - فى مجال التحقيق- هذا الكتاب الذى بين أيدينا وكتاب شرح الحماسة للمرزوقى. كما شارك فى ترجمة العديد من الأعمال الفكرية الكبرى نذكر منها : قصة الأدب فى العالم، وقصة الفلسفة اليونانية.

أما المرحوم الأستاذ السيد أحمد صقبر (١٩١٥-١٩٨٩م) فهو أحد ثقات المحققين الذين أثروا المكتبة العربية الإسلامية بما أخرجوا من كنوز التراث. ومن أبرز تحقيقاته : كتاب تأويل مشكل القرآن، وكتاب تفسير غريب القرآن، وكلاهما لابن قتيبة، وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للأمدي، وكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، وقد جمع - رحمه الله - إلى التحقيق نقد تحقيقات الآخرين وتقويمها، ومن نماذج هذا النقد ما قدمه من ملاحظات على تحقيق المرحوم الأستاذ أحمد محمد شاكر لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

أما مقدم هذه الطبعة الأستاذ الدكتور صلاح رسلان فهو أستاذ للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقد سبق أن شغل منصب عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ومنصب رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة. ومن أعماله المنشورة : القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، القرآن الحكيم، العلم في منظوره الإسلامي، الفكر السياسي عند الماوردي، الخلاق والسياسية عند ابن حزم، السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، إلى جانب عدد من الأبحاث التي نشرت في المجلات العلمية.

عزيزي القارئ.. ذلك ما اجتمع في كتاب (الهوامل والشوامل) وما اجتمع له، في تأليفه وتحقيقه ثم إعادة تقديمه في سلسلة النخائر، وإذا كان اسمي قد وُضع ضمن هيئة تحرير السلسلة فإنما جاء ذلك وفقا لمقتضيات النظام الرسمي - الشكلي - أما نوري الحقيقي - كما أراه وأحرص عليه- فهو الوفاء بحق الصداقة بيني وبين الأخ العزيز الدكتور (محمود فهمي حجازي) رئيس التحرير -أثناء وجوده خارج مصر - في رعاية هذه السلسلة - سلسلة النخائر- التي نعتز بها جميعا، والتي نقدم لك عزيزي القارئ إحدى بررها الثمينة.. كتاب الهوامل والشوامل.

عبد الحكيم راضى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الإطار الحضارى لعصر التوحيدى:

التوحيدى هو على بن محمد بن العباس المعروف. بأبى حيان التوحيدى، مفكر إسلامى كبير، وأديب فذ، ومثقف ملم بمعارف عصره من نحو ولغة وشعر وأدب وفقه وفلسفة وعلم كلام وسياسة وفلك وهندسة ورياضيات. وقد وصفه لنا ياقوت فى معجم الأدباء فقال إنه «فيلسوف الأدباء»، وأديب الفلاسفة، ومحقق المتكلمين، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء... فرد الدنيا الذى لاتظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة...» (١).

ولد التوحيدى فى بغداد حوالى سنة ٣١٠ أو ٣١١ هجرية (على وجه التقريب) من أبوين فقيرين، إذ كان أبوه أو أحد أجداده تاجراً يبيع نوعاً من التمر يقال له التوحيد، ويرجع البعض الآخر لقب التوحيدى إلى التوحيد يقول ابن حجر العسقلانى: «يحتمل أن تكون نسبة هذا اللقب إلى التوحيد» (٢).

ويرى الذهبى أن التوحيدى هو الذى نسب نفسه إلى التوحيد، مثلما سُمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين، وكما يسمى صوفية الفلاسفة أنفسهم بأهل الوحدة والاتحادية (٣).

كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الذى عاش فيه التوحيدى من سنة ٣١٠ هـ إلى سنة ٤١٤ هـ قرناً مليئاً بالتناقضات التى تعيننا على فهم

(١) ياقوت الرومى: معجم الأدباء، طبعة الدكتور فريد الرفاعى، القاهرة، (١٩٣٨)، ص ٥-٦ ج ١٥).

(٢) ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد (ج ٦ ص ٣٦١).

(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء (١٧/١٢١).

طريقته في التفكير، وأسلوب معاشه، وسماته الشخصية، فالتوحيدى عاش فى بيئة سياسية حافلة بالفوضى وذبوع الفتنة والاضطراب، وتفشى الإرهاب السياسى والاضطهاد المذهبى، وقد شهد هذا العصر الذى ولد التوحيدى ونشأ فيه بداية التدهور السياسى للخلافة العباسية وتفكك الأمصار، وتغلغل الأعاجم فى جسم الدولة وتسلبهم على الأمور، وازدياد تفاقم الصراعات الطبقية والعرقية، كما عاصر التوحيدى فساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى فترة حكم بنى بويه التى أدت فى النهاية إلى سوء توزيع الثروة العامة وانقسام المجتمع إلى طبقتين: طبقة الفقراء التى تعيش فى الحرمان والبؤس والشقاء والغبن. وطبقة الرؤساء والأغنياء التى عكفت على الترف والبهخ واللهو، وقد انعكست آثار هذا العهد القاسى المظلم، بما حفل به من فساد سياسى واجتماعى واقتصادى على أسلوب حياة التوحيدى، مما دفعه دفعا إلى محاولة الاتصال بالأمراء والوزراء والوجهاء طلباً للرزق وسعياً وراء المال والشهرة، وشارك التوحيدى فى هذا الأسلوب من أساليب السلوك معظم المثقفين فى تلك الآونة، وهو ما يؤكد أن مافعله التوحيدى لم يكن بالشىء المستغرب فى ذلك العصر، لأنه فى نهاية الأمر «إنسان من دم ولحم، تؤرقه مشكلات الرزق والمعاش، وتقض مضجعه مشاغل الحياة، ويقلق باله مايقع عليه من ظلم، ويشير حفيظته ماينزل بساحته من آلام بسبب قسوة المجتمع» (١).

وقد سرت فى أفراد المجتمع أيضاً نتيجة فساد الحياة الاقتصادية والاجتماعية روح الكآبة وذم الزمان و أهله، والتمرد على الظلم، وشيوع روح التواكل وهو ماغير عنه أدياء هذا العصر خاصة التوحيدى .

(١) د. زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ط٢،

فى مقابل هذا الانهيار والأقول السياسى عاصر التوحيدى فى القرن الرابع الهجرى رقى الحياة العقلية وتقدم العلوم والفنون، وتأتى العمارة والإدارة والتجارة، ووفرة المجالس العلمية والثقافية، وازدانت بغداد عاصمة الدولة بثمرات تلك الحضارة المادية والمعنوية، وازدهمت بالكثير من نوايخ الأدب والفلسفة وعلوم الدين من أقطار دولة الإسلام الذين أضاعوا الطريق للأجيال من بعدهم، ومن هؤلاء ابن سينا، والحيام، والمعري والباقلانى والبيهقى والقشيرى ومسكويه والاسفرايينى والمتنبى وعثمان بن جنى النحوى الموصلى والشريف الرضى ومهيار الديلمى وابن العميد الكاتب والصاحب بن عباد وابن النديم، وغير هؤلاء من أعلام القرن الرابع الهجرى، وظهر أثر كل هذا فى كتابات أبى حيان التى عكست صور تلك الحياة الثقافية والتألق الحضارى فى شتى جوانب الدولة الإسلامية، حتى عده البعض المرآة الناصعة لثقافة القرن الرابع الهجرى، وسجلاً وعنواناً دقيقاً لثقافة قرن بأكمله فى تاريخ التراث العربى .

أسانذته وموسوعيته :

وقد دفع «حب التنوع» التوحيدى إلى دراسة مختلف العلوم والفنون مثل الفقه والحديث والفلسفة والمنطق والكلام والتوحيد والتصوف، ومحاولة الأخذ من كل علم منها بطرف، إذ كان بحق «شخصية فلسفية طلعة تستخلص الأسئلة من كل مايقع أمامها، سواء كانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية..»^(١).

فإذا أضفنا إلى هذا أن العلماء الذين اتصل بهم، وتلقى العلم على أيديهم كانوا من العلماء الموسوعيين ذوى الثقافات المتعددة، أدركنا سر تلك

(١) الهوامل والشوامل: للتوحيدى ومسكويه، تحقيق ونشر أحمد أمين والسيد أحمد صقر،

لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١، مقدمة أحمد أمين ص «د» .

الروح الموسوعية التي تميز بها التوحيدى ومكنته من المزج بين كل تلك الثقافات.

وكان ممن اتصل بهم وتلقى العلم على أيديهم من العلماء أبو سليمان السجستاني المنطقي، والفيلسوف يحيى بن عدى، والشيخ أبو سعيد السيرافى عالم النحو والكلام، والعالم على بن عيسى الرمانى، وعالم الفقه المروذى. فأبو سليمان أحمد بن طاه بن بهرام السجستاني كان فى مقدمة الأساتذة العلماء الذين تتلمذ على أيديهم التوحيدى، وهو من كبار الفلاسفة وعلماء المنطق واللغة وصاحب أنظار فى الأدب والشعر. وكان التوحيدى يكثُر من ملازمته حتى عدّه القفطى «أحد أصحابه المعتمدين به» ولا أدل على ذلك من أن كتاب التوحيدى المسمى باسم «المقابسات» يشتمل الجزء الأكبر منه على أحاديث ومناقشات جدلية وفلسفية لأبى سليمان وتلاميذه .

أما الفيلسوف النصرانى أبو زكريا يحيى بن عدى (ت ٣٦٠هـ) فهو من أشهر تلامذة الفيلسوف أبى نصر الفارابى وبشر بن متى. وكان متضلعا فى علم المنطق الذى يعتمد عليه فى إثبات الحقائق والعقائد. ويحفل كتاب المقابسات بالكثير من آراء يحيى بن عدى نحي الكون والفساد والحركة والزمان والعلّة والمعلول، والصورة والمادة ... إلخ ..

وأما أبو سعيد السيرافى، (٢٨٤ - ٣٦٨هـ) فهو أستاذه الأكبر الذى أخذ عنه علوم النحو والكلام والفقه والشريعة. وقد أثبت التوحيدى فى «الإمتاع والمؤانسة» تلك المناظرة الشهيرة التى جرت بين السيرافى ومتى بن يونس القناتى عن المفاضلة بين النحو العربى، والمنطق اليونانى، وكان السيرافى متمتعاً بسعة الاطلاع والورع والصلاح والتقوى مما دفع المحيطين به إلى مخاطبته بشيخ الإسلام والإمام الجليل .

وهناك أستاذ آخر تتلمذ عليه التوحيدى وهو على بن عيسى الرمانى (٢٧٦ - ٣٨٤هـ) وكان عالماً متبحراً فى مختلف العلوم من نحو ومنطق ولغة وأدب وكلام وفقه وحديث .. إلخ، وكان له أثر كبير فى تنشئة التوحيدى من الناحية اللغوية والنحوية والمنطقية بل العقلية بصفة عامة .

ودرس التوحيدى الفقه الشافعى على القاضى المتبحر فى أصول الشريعة وفروعها أبى حامد المروروذى (المتوفى سنة ٣٦٢هـ) والذى عده التوحيدى بحق بحراً يتدفق حفظاً للسير واستنباطاً للمعانى، وثباتاً على الجدل، ويرجع شغف التوحيدى بتعريف الألفاظ وتحديد معانى الكلمات إلى أبى حامد المروروذى كما يشير إلى ذلك فى كتاب «البصائر والذخائر» .

وهكذا فقد تتلمذ التوحيدى واتصلت أسبابه بأكبر علماء عصره. فتلقن أصول العلوم اللغوية والفلسفية والشرعية على يد أعظم مفكرى زمانه مما أكسبه ثقافة موسوعية واضحة. أضف إلى ماسبق احترافه مهنة الوراثة التى مكنته من الاطلاع على عيون التراث وأمهات الكتب العربية إلى جانب عدد آخر من العلماء ممن قرأ عليهم واتصل بهم أمثال أبى محمد جعفر الخلدى من كبار المتصوفة، وابن سمعون (٣٠٠ - ٣٨٧هـ) وكان حكيماً واعظاً، وأبى بكر القومسى المتفلسف، وأبى الحسن العامرى الفيلسوف الإسلامى، وابن النفيس الرياضى .

شخصيته:

كانت شخصية التوحيدى شخصية قلقة حائرة معتلة الطبع ذات مزاج سوداوى، قائمة على الازدواج والتناقض والتمزق الداخلى، لم يعهده الناس إلا شاكياً باكباً مفرطاً فى السخط وذم الناس، تشكى كثيراً فى أكثر مؤلفاته مثل: الإمتاع والمؤانسة، والصدقة والصديق، والمقاسبات، والبصائر والذخائر،

ومثالب الوزيرين، إذ وجد من هم أقل منه موهبة وذكاء يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف في الدنيا، بينما لم ينل هو إلا البؤس والحرمان، لقد شكا التوحيدى من الفقر الذى يعد القبر خيراً منه، كذلك شكا من ذوى اليسار والنعم، وازدادت كراهيته للناس حتى أصبحوا فى نظره سباع ضارية وكلاب عاوية، وعقارب لساعة، وأفاع نهاشة.

ولكنه شكا أيضاً من عنف الحياة الإنسانية وقسوتها وضعف الإنسان وتناقض ذاته البشرية، كما شكا من هول الموت، وكان من نتائج مرارته وحقده على الأحياء، ونفوره من المجتمع، أن بعدت الشقة بينه وبين معاصريه، وتعذر التفاهم بينه وبينهم .

وتفسر لنا شخصية التوحيدى القلقة التى لاتستقر على حال - بوضوح - سر التناقض فى حياته وكتاباتة، فى الوقت الذى يتحدث فيه عن حلوة الدنيا وعذوبتها ينادى بالزهد والقناعة والتنسك، وإذا كان فى بعض كتاباته صريحاً عدوانياً أحياناً إلا أنه فى بعضها الآخر بدا مجاملاً إلى حد التذلل، وفى الوقت الذى نراه عابساً متشائماً مستسلماً لليأس، نراه فى ظروف أخرى ضاحكاً ساخراً مسترسلاً فى رواية النكات المجونية، وأبو حيان الذى يشير إلى فناء الدنيا ويحقر من شأنها ويعظم من شأن الآخرة هو أبو حيان الذى يرى أن الدنيا حلوة خضرة وعذبة نضرة، وأن العاجلة محبوبة، والرفاهية مطلوبة .

ولعلنا لاتتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن سر شعوره بالغرابة والوحشة الهائلة فى الحياة إنما يرجع إلى ماعاناه من فقر ومرارة فيها، وعجز عن تحقيق أمانيه، والفوز بالغنى والمجد والسعادة، وتظلمه المستمر وقمرده على ذاته، وتشكيه الدائم من الناس والحياة والزمان .

لاغرابة بعد ذلك أن يكون التوحيدى فيلسوفاً وعالمياً، فنانياً ومفكراً، وفقياً ومتصوفاً، أديباً ومنطقياً .

موقفه من علم الكلام والفلسفة والتصوف:

التوحيدى والكلام:

وصفه ياقوت فى «معجم الأديباء» بمحقق الكلام، ومتكلم المحققين، ونعته السبكى فى «طبقات الشافعية الكبرى» بالمتكلم الصوفى، وعلل ابن حجر تسميته بالتوحيدى بأن المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل التوحيد .
ولكننا إذا تتبعنا كتب التوحيدى وجدنا أنه لم يكن ينتمى إلى طائفة علماء الكلام، بل كان كثير النعى عليهم، دائم الاستهزاء بهم، والخط من شأنهم ومهاجمة طريقتهم فى البحث والاستدلال، وقد شملت سخريته بهم ألفاظهم السخيفة الساقطة المنحطة، كما ورد من ذلك فى مؤلفاته: البصائر، والإمتاع والمؤانسة والمقابس، ورسالة فى العلوم .

ويبدو أن السر فى حملته على علم الكلام، ومهاجمته طريقة المتكلمين، يرجع إلى مناصرتة أهل الحديث، وميله إلى البساطة، والابتعاد عن السفسطة والشك والاختلاف والفرقة. أضف إلى ذلك انتسابه إلى مدرسة أستاذه أبى سليمان المنطقى، وهى مدرسة فلسفية ترى الفصل بين الفلسفة والدين، إذ إن لكل منهما مجاله الخاص فى النفس الإنسانية: فالدين وحى قائم على القبول والتسليم وليس فيه «لم» و«كيف»، إلا بقدر ما يؤكد أصله، وينفى عارض السوء عنه، والفلسفة تفكير بشرى مبنى على النظر، وفى ذلك يقول أبو سليمان:

«الفلسفة حق، لكنها ليست من الشريعة فى شىء»، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شىء... وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه. وأحدهما مخصوص بالوحى، والآخر مخصوص ببحثه... وهذا يقول: أمرت وعلمت، وقيل لى وما أقول من تلقاء نفسى، وهذا يقول: رأيت

ونظرت واستحسننت واستقبحت...»^(١) ولعل هذا يفسر لنا ثورة التوحيدى على كل من يقول بالجمع بين الفلسفة والدين مثل جماعة إخوان الصفا، وهو ما حاول البعض نسبته إليهم^(٢)، لكن التوحيدى- فى بعض الآراء - كان يخفى ذلك.

ويورد التوحيدى فى المقابسات إجابة أستاذه أبى سليمان السجستانى المنطقى عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة فيقول:

«طريقتهم - يعنى المتكلمين- مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء بالشيء إما بشهادة من العقل مدخولة، وإما بغير شهادة منه البتة، والاعتماد على الجدل، وعلى ما يسبق إلى الحس، أو يحكم به العيان، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس، والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشأ، وسائر الأعراض التى يطول إحصاؤها، ويشق الإتيان عليها، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة، والتدافع، وإسكات الخصم بما اتفق، وإتمام القول الذى لا محصول فيه، ولا مرجوع له، مع بوادر لاتليق بالعلم، ومع سوء أدب كثير، وقلة تأله، وسوء ديانة، وفساد دخلة، ورفض الورع بجملته ...

والفلسفة محدودة بحدود ستة، كلها تدرك على أنها بحث عن جميع ما فى العالم مما هو ظاهر للعين، ويطن للعقل، وماركب بينهما، ومائل إلى أحد طرفيهما.. من غير هوى يمال به على العقل، ولا إلف يفتقر معه إلى جنابة التقليد، مع إحكام العقل الاختيارى وترتيب العقل الطبيعى... ومع أخلاق إلهية واختيارات علوية وسياسات عقلية...»^(٣).

(١) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة ١٨/٢ .

(٢) د. زكى مبارك: النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ١٤٣/٢ .

(٣) التوحيدى: المقابسات ط الرحمانية ١٩٢٩م. ص ٢٢٣ .

ومما أثار التوحيدى على علماء الكلام مزجهم الفلسفة والمنطق بالدين وتعمقهم فى مباحث العقائد على أساس من الدليل العقلى، وهو يرى أن النظر فى الدين على هذا الأساس الكلامى لا يورث فى النهاية إلا الشك والمرية، والظن، والاختلاف والفرقة، والحمية والعصبية كما ورد فى مقابساته، ومادام الدين مبنياً على الخشوع والتقوى، فإن المتكلمين - فى نظره - من أهدى الناس عنه، لأنهم يتكلمون بعقولهم فى المسائل، ويردّون الحجج، ثم لا ترى عندهم خشوعاً، ولا رقة، ولا تقوى ولا دعة .

لاغرابة بعد ذلك فى أن يهاجم التوحيدى علماء الكلام ويصفهم بأقذع الصفات ويوجه إليهم نقداً حاداً، فقد هاجم - على سبيل المثال - أحد كبارهم وهو الداركى، وهاجم أبا بكر الباقلاتى (ت ٤٠٣هـ) الأشعرى صاحب إعجاز القرآن، كما وجه نقداً إلى علماء الكلام، من المعتزلة مثل أبى عيسى الوراق (ت ٢٤٧هـ) وعلى بن عيسى الرمانى. (ت ٣٨٤هـ) والعلاف (ت ٢٣٥هـ).

ولعل فى نقد التوحيدى اللاذع للمعتزلة ما ينفى عنه صفة الاعتزال وأنه كان من المدافعين عنهم أو من أنصارهم، فهم عنده لا يعرفون صناعة التعريف المنطقى، أى صناعة التحديد، وعملهم فيها أشبه ما يكون بالهذيان، وهى «صناعة صعبة تحتاج إلى علم واسع بالمنطق ودرية مع ذلك كثيرة، وغاية ما عند هؤلاء القوم فى التحديد إبدال اسم مكان اسم، بل ربما كان اسم الشيء أوضع من الحد الذى يضعون... أما ماتكلفوه من الحدود، فهو بالهذيان أشبه...»^(١) وإذا كان التوحيدى قد ذكر فى بعض مصنفاته أفراداً من المعتزلة درس عليهم وتلقى العلم على أيديهم، فإنهم لم يسلموا من نقده الحاد، ومهاجمته لهم هم وسائر رجال الكلام أشعرية وإمامية، وما ذلك إلا لأن طريقتهم لا تفضى بهم إلا إلى الشك والارتياب وانعدام الطمأنينة واليقين .

(١) التوحيدى ومسكويه: الهوامل والشوامل: ١٣٦ .

إن الدين الإسلامى كما يرى التوحيدى فى الجزء الثانى من كتابه «البصائر والذخائر» معقود بالتسليم، لكن ينبغى أن يكون التسليم والتفويض سابقين للنظر والجدل، والمرء والضلال، والحيرة فى تناقض الأقوال، لأن التلاعب بحجج الله، والاجترار على عقول عباد الله، ليس من سنن أنبياء الله، ولا من آداب أولياء الله .

وقد أخطأ السنيور كارلونلينو حين وصف التوحيدى بأنه من علماء الكلام^(١)، ومنشأ الخطأ هو ذهاب البعض إلى القول بأنه سُمى التوحيدى لأنه كان من أهل التوحيد، ويظهر أن هذه التسمية قد جاءت من محاولاته توظيف كل علم لبلوغ التوحيد وهو ما يكشف عنه قوله فى الإمتاع والمؤانسة : «وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقق التوحيد، ولا تدل على الواحد، ولا تدعو إلى عبادته». (٢)

التوحيدى والفلسفة :

اهتم التوحيدى بتمجيد الفلسفة التى عدها صناعة لا بد أن تنتهى بصاحبها إلى التوحيد الصافى من الشوائب ومظاهر الشك والإلحاد التى وردت على ألسنة المتكلمين .

وموضوع الفلسفة هو البحث عن العالم بأسره بكل ما اشتمل عليه من مخلوقات وكائنات وموجودات .

«إنها بحث عن جميع ما فى العالم، مما ظهر للعين، وبطن للعقل، وماركب بينهما... من غير هوى يمال به على العقل، ولا إلف يفتقر معه إلى جنابة التقليد» (٣).

(١) تاريخ علم الفلك: حاشية ص ٥٥ .

(٢) التوحيدى: الإمتاع ٣/١٣٥ .

(٣) · التوحيدى: المقابسات ص ٢٢٣ .

إن الفلسفة عنده، هي «علم العلوم وصناعة الصناعات، لاتعطيك فى موضع الشك اليقين، ولافى موضع الظن العلم، ولكنها تعطيك فى كل شئ ما هو خاصته وحقيقته إن شكاً فشكاً، وإن يقيناً فيقيناً» (١).

ومن هنا فإن التوحيد، كما يرى أبو حيان فى المقابلة رقم ٦٣، لم يصف فى الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ، كما صفا فى الفلسفة .

وسبيل الوصول إلى الفلسفة هو السعى الحثيث، والجد فى الطلب، وذلك بالنظر إلى اشتغالها على أغراض سائر العلوم، ولأدلى على ذلك من تناول أغلب مؤلفاته لموضوعات فلسفية إلهية كانت أو طبيعية أو أخلاقية، وهى الموضوعات الثلاثة الكبرى التى ينشغل بها الوعى الإنسانى .

أما عن موقفه من العلاقة بين الفلسفة والشريعة فىرى أن «الفلسفة حق لكنها ليست من الشريعة فى شئ»، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شئ، وعلى من يريد التفلسف أن يعرض بنظره عن الديانات، ومن يريد الدين فعليه أن يبتعد عن الفلسفة» ولكن عليه بعد ذلك أن يتحلى بهما متفرقين فى مكانين مختلفين، ويكون بالدين متقرباً إلى الله تعالى - على ما أوضحه صاحب الشريعة عن الله تعالى - ويكون بالحكمة (الفلسفة) متصفحاً لقدرة الله تعالى فى هذا العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين، المحيرة لكل عقل، ولا يهدم أحدهما بالآخر... ولا يعترض على ما يبعد فى عقله ورأيه من الشريعة وبدائع النبوة بأحكام الفلسفة، فإن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصور على الغاية، والديانة مأخوذة من الوعى الوارد من العلم بالقدرة. (٢)

فلا غنى للإنسان إذن - عند التوحيدى - عن الدين والفلسفة، وهو بهذا يحتفظ للفلسفة بمكان كبير فى فكره الإنسانى، مؤكداً أهمية الدور الذى تلعبه

(١) التوحيدى: المقابسات، المقابلة ٤١ ص ٢٠٤ .

(٢) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ط١ بالقاهرة ١٩٤٢م ج٢ ص ١٨ - ١٩ .

فى حياة الإنسان الذى أولاه منزلة رفيعة فى جل مؤلفاته، وفى ذلك يخاطب التوحيدى الإنسان قائلاً: «فاسعد أيها الإنسان بما تسمع وتحس وتعقل، فقد أردت لحال نفيسة، ودعيت إلى غاية شريفة وهيئت لدرجة رفيعة، وحليت بحلية رائعة، وتوجت بكلمة جامعة، ونوديت من ناحية قريبة». (١)

لقد قام التوحيدى بدور مهم فى تاريخ الفكر الإسلامى إذ قرب أسلوبه الأدبى السلس البسيط الرائع الفلاسفة من الجماهير، وأحالها إلى ثقافة شعبية ينهل عامة الناس من معينها شتى ألوان المعرفة، لهذا استحق أن يوصف بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، كما ذهب إلى ذلك ياقوت الرومى، فى (معجم الأدباء) .

التوحيدى والتصوف:

انطبعت حياة التوحيدى وأغلب مؤلفاته بالطابع الروحى الصوفى، حتى لقد كان الزهد والتصوف أشهر ما عرف به من بين معارفه الأخرى، فلا عجب أن يصفه ياقوت فى (معجمه) بأنه شيخ الصوفية، وبأنه صوفى السمى والهيئة، وينعته السبكى فى (طبقات الشافعية) بالمتكلم الصوفى .

وقد كان يتزيا بزى الصوفية، وظل يحتفظ به إلى النهاية، ويأنس لأصحاب المرقعات، والتاسومات (٢). وأغلب الذين آخاهم فى شبابه كانوا من الزهاد والصوفية مثل ابن الجلاء الزاهد، وابن سمعون الصوفى.

ويحدثنا أبو حيان بأنه حج بيت الله الحرام، سعياً على أقدامه فى رفقة من إخوانه المريدين، وأنهم أوشكوا على الهلاك تعباً وسغباً لولا رعاية الله ولطفه بهم .

(١) التوحيدى: المقابسات، المقابسة رقم (١)، ص ١١٩ .

(٢) المرقعة: من ملابس الصوفية، التاسومة، نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء .

وقد تميز سلوكه - على وجه العموم - بطابع الزهد والتصوف ويظهر ذلك واضحاً فيما أقدم عليه من تخفّ واستتار وهجرة إلى شيراز التي كانت تعمر بالصوفية واتخاذها مقاماً له حتى دفن بها بجوار الصوفى ابن عفيف. كما يظهر ذلك واضحاً - أيضاً - فى إحراقه لمؤلفاته وثمرات عقله فى أواخر أيامه، اقتداءً بمن سبقوه وصنعوا صنيعه من الزهاد مثل داود الطائى والدارانى، وسفيان الثورى .

وقد دفعت هذه النشأة الصوفية التوحيدى إلى الدفاع عن التصوف وتأليف مؤلفات قيمة فى هذا الفن منها :

- ١ - الرسالة فى أخبار الصوفية .
- ٢ - الرسالة الصوفية .
- ٣ - رياض العارفين .
- ٤ - الإشارات الإلهية .
- ٥ - كتاب الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى . ألف سنة ٣٨٠هـ (١) .

ولم يعرف للتوحيدى مذهب مستقل فى التصوف، أو إشادة بطريقة خاصة من طرق الصوفية أو نوع معين من أنواع التصوف، ويبدو أن تصوفه هو من نوع التصوف المعتدل المستند إلى تعاليم الكتاب والسنة والمنطبع بالطابع الأخلاقى. آية ذلك «جمعه - كما يقول محمد كرد على - بين مذهب أهل الصوفية، أمثال المحاسبى والتسترى، والجنيد والسرى السقطى وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من النساك^(٢) الذين وزنوا أقوالهم بميزان الشريعة .

(١) دائرة المعارف الإسلامية: على بن محمد بن العباس التوحيدى .

(٢) محمد كرد على: أمراء البيان، ط: اللجنة، بالقاهرة ج٢ ص ٤٩٤ .

فالمقطوع به أن تصوف التوحيدى لم يكن من ذلك النوع الفلسفى الشطحى الحاد، الذى ينطلق فيه أصحابه من حال الغناء إلى إعلان الحلول أو الاتحاد، مما أثار عليهم فقهاء المسلمين. فتصوف التوحيدى - إذن - هو تصوف معتدل لا يتعارض مع المبادئ الإسلامية، ولعل ذلك يدفعنا إلى القول بأن دعاوى القائلين بأن التوحيدى كان من أصحاب مذهب الإتحاد أو مذهب وحدة الوجود، تصبح دعاوى متهافة لا أساس لها من الصحة أو اليقين .

وللزهد عند التوحيدى مفهوم خاص، فهو ليس اعتزالاً للحياة أو انقطاعاً عنها، بل هو معنى يتحقق به الإنسان، يدفعه إلى العمل فى الحياة - والانصراف إلى الجاد من أمورها، وكفالة الخير للجميع، يقول التوحيدى على لسان أستاذه المروذى الزهد فى الدنيا لا يصح: «لأن الإنسان خلق منها وعمرها وسكن فيها، فلا سبيل إلى انسلاخه منها، على ما ترى جفاة الصوفية يقولون... وإنما أريد بالزهد القيام بالأمر والنهى على قدر الطاقة، وكنه القوة مع التقلب بين الرجاء والخوف، وإصلاح القلب بحسن النية فى الخير، وبذل المجهود من الوجود لمن يحسن معه الجود». (١)

أما عن موضوع الألقاب والمخاطبات فيرى التوحيدى أن الأصل فى ذلك هو شعور الناس بالتقص، والعجز الغالب عليهم، فهم يريدون علاج ذلك عن طريق الألقاب ونفى الضعف الغالب عليهم بالتفخيم فى الخطاب، وفى ذلك يروى رأى أستاذه المروذى فيقول: «وليس الطريق إلى ذلك هذا، بل الطريق إليه الأخذ بأخلاق من سلف من الحياء والكرم والدين والمروعة. وانظر إلى السلف الصالح كيف كانوا؟ هل خاطبوا رسول الله ﷺ إلا بيارسول الله؟ وبعد، فهل يخاطب ربنا إلا بالتاء والكاف، وهل سمعت عبداً لله أخلص دينه

(١) التوحيدى: البصائر والذخائر ط. اللجنة، بالقاهرة: ٢١٢ .

له قال: إن رأى رينا فعل بعبده كذا كذا؟ وهل الخير كله إلا فيما خص الله به نبيه وأمته، وأشاع فيهم حكمته وبركته»^(١).

دينه:

اختلف المؤرخون في دينه وعقيدته، فابن فارس في كتابه «الفريدة والخريدة» يقول عنه إنه كان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان وإنه تعرض لأمر جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل.^(٢)

وجاء ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) في تاريخه فقال «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى والتوحيدى وأبو العلاء (المعري). قال: وأشدهم على الإسلام أبو حيان لأنه مجمع، ولم يصرح»^(٣).

ثم جاء الذهبى (ت ٧٤٨هـ) فتابعهما في هذا الاتهام، وزاد فقال: «إن أبا حيان كان عدو الله خبيثاً، سيئ الاعتقاد»^(٤).

ولكن علماء آخرين على رأسهم ياقوت^(٥) وابن النجار^(٦) والسبكي^(٧) شهدوا له بصحة الدين، وسلامة العقيدة، وأن ما فى كتبه لا يدل على زندقة أو إلحاد.

(١) التوحيدى: مثالب الوزيرين، تحقيق ونشر إبراهيم الكيلانى، دار الفكر العربى، بدمشق، ١٩٦١ ص ١٩١-١٩٢.

(٢) السبكي طبقات الشافعية، ط. القاهرة، ٢/٤.

(٣) المصدر السابق، والسيوطى، بغية الوعاة ٣٤٨.

(٤) الذهبى: ميزان الاعتدال ٣/٣٥٥ والسبكي: طبقات الشافعية ٢/٤.

(٥) انظر: معجم الأدباء ٥/١٥.

(٦) السبكي: طبقات الشافعية ٢/٤.

(٧) المصدر السابق.

ويرجع الأستاذ محمد كرد علي^(١) أن للحسد والمجهل مدخلاً كبيراً في الطعن على التوحيدى .

لقد كان التوحيدى حنيفاً مسلماً، صوفياً يغار على دينه، ويقر بجلال القرآن وإعجازه ويمجد أحاديث رسول الله ﷺ ، ويدعو إلى الشقة فى الله وحده، وفى ذلك يقول أبو العباس أحمد بن أبى الخير زركوب شيرازى وهو من أعلام القرن السابع الهجرى:

التوحيدى هو «الإمام الموحّد»، والعالم المتفرد، الجامع للمعارف والعلوم، لا نظير له فى المكاشفات الإلهية، والبحث فى التوحيد.^(٢)

ويبدو أن الذى دفع بعض مؤرخيه مثل الخوانسارى فى (روضات الجنات)، إلى اتهامه بالزندقة والإلحاد هو ما ذكره هذا البعض من تأليف التوحيدى لكتاب يسمى: الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى، يوحى عنوانه بالزندقة، التى أودت بحياة الحلاج الذى نادى بفكرة الحج العقلى، التى ترى أن القلوب هى أداة الحياة الدينية، وأنها تفضل حركات الجوارح، بله فرائض السنة، إن من يعرف الحقيقة، فى رأى هذا البعض المغالى من الصوفية، تسقط عنه الشريعة، وإلى أن يظهر كتاب التوحيدى هذا، علينا أن نسلم بقوة إيمانه وتسليمه المطلق لوجه الله، وتمسكه الشديد بمبادئ الدين وقروض السنة، أما الزعم باستهانة التوحيدى بالحج، وهى الفكرة التى شاعت بين بعض متصوفة جيله، فيبعدها عنه أن الرجل حج ماشياً على قدميه عام ٣٥٢هـ^(٣).

(١) أمراء البيان: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٣، ج٢ ص٤٩٨

(٢) شيراز نامه: ط. طهران ١٣٥٠ ص١٠٨ .

(٣) عبد الرزاق محى الدين: أبو حيان التوحيدى، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٤٩ ص٢٤٦ .

مؤلفاته:

تميز التوحيدى بثقافته الموسوعية وخصوبة إنتاجه وفعاليته إذ ألف فى أغراض عدة، وكتب فى أكثر من قضية، ولولا أنه أحرق كتبه فى أواخر أيام حياته لكانت الفائدة منها أعم، وقد أورد ياقوت الحموى فى معجمه ثبناً بأسماء بعضها. ومن هنا كان من المتعذر علينا أن نتحدث عن كل مؤلفاته، إذ لا يزال بعضها مخطوطاً وموزعاً على مكتبات العالم، وبعضها ضاع وأتلف، وسنحاول فيما يلى أن نعرض لأهم مؤلفاته المطبوعة .

- أخلاق الوزيرين، أو «ذم الوزيرين» أو «مثالب الوزيرين»: يهاجم التوحيدى فيه الوزيرين أبى الفتح بن العميد والصاحب بن عباد، كاشفاً عن مثالبهما، بعد أن فشل فى تحقيق الخطوة أو الحصول على الشهرة والجاه لديهما .
- الإشارات الإلهية «والأنفاس الروحانية»: وهو فى التصوف، ويتألف من ٥٤ رسالة فى المواعظ والأدعية الصوفية الحارة إلى الله بعد أن يبلغ التوحيدى مرحلة متأخرة من مراحل حياته.
- الإمتاع والمؤانسة : ويعد هذا الكتاب المؤلف من ثلاثة أجزاء من أضخم كتب التوحيدى وأكثرها أهمية ونفعاً، ويزخر بشتى فنون المعرفة من أدب ولغة وفلسفة وأخلاق وتصوف وشرعية وكلام وطبيعة والهيئات .
- وينفرد الكتاب بإيراد وثيقتين مهمتين: «الأولى منهما هى النص المتعلق بمؤلفى إخوان الصفا، والثانية هى المحاوراة التى دارت فى بغداد عام ٣٢٦هـ بين العالم النحوى أبى سعيد السيرافى وعالم المنطق متى بن يونس

حول المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى، بما يشير إلى قصة النزاع المتجدد بين النحويين والمنطقة» (١).

- البصائر والذخائر:

وهو كتاب ضخيم، استغرق التوحيدى فى تأليفه خمسة عشر عاماً ما بين ٣٥-٣٦٥هـ، وكشف عن محصلة مطالعة التوحيدى وتجاربه وثقافته الموسوعية وأمانته العلمية. ويشتمل على معارف متنوعة إذ نجد فيه الأدب والتفسير والشعر والنثر، والتاريخ والفكاهة والفلسفة والتصوف .

- رسائل أبى حيان التوحيدى:

وهى تسع رسائل بتحقيق إبراهيم الكيلانى، دار طلاس بدمشق ١٩٨٥ .
والرسائل المنشورة هى: رسالة السقيفة - ورسالة فى علم الكتابة -
ورسالة الحياة - ورسالة فى العلوم - ورسالة إلى أبى الفتح بن العميد -
ورسالة إلى أبى الوفاء المهندس البوزجاني - ورسالة أخرى إلى الوزير أبى عبد
الله العارض وزير صمصام الدولة البويهى - ورسالة إلى القاضى أبى سهل على
بن محمد .

وتمثل رسالة السقيفة جانباً من الصراع بين السنة والشيعة فى عصر بنى بويه الذين رفضوا رأى الصحابة فى الشيخين، وفضلوا عليهما علياً .
أما رسالته الثانية فى علم الكتابة فقد كتبها فى أنواع الخطوط العربية وقواعدها وأنواع الأقلام، ومعانى الخط، وذلك من واقع خبراته الطويلة فى مجال الكتابة والوراقة .

(١) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة: تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، ١٩٣٩،

١٩٤٤، مقدمة أحمد أمين، الجزء الأول، ١٩٣٩، ص ١٧ وانظر أيضاً القفطى: تاريخ

وتوضح الرسالة الثالثة رؤيته الفلسفية فى الحياة والموت والمعاش والمعاد.

ويرد التوحيدى فى «رسالة فى العلوم» على القائلين بأنه ليس للمنطق مدخل فى الفقه، وللفلسفة اتصال بالدين، ولالحكم تأثير فى الأحكام ويهاجم فى هذه الرسالة أدعاء العلم موضحاً الصلة الوثيقة بين الفلسفة والمنطق وعلوم الشرع .

- الصداقة والصدىق :

كتبه التوحيدى فى مرحلة متأخرة من حياته تعكس حالة اليأس التى انتهى إليها، وجمع فيه معظم ماكتب عن الصداقة والصدىق شعراً ونثراً عند العرب فى الجاهلية والإسلام وعند غيرهم من الشعوب الأخرى كاليونان والفرس ويتميز الكتاب بأسلوبه الشائق الذى يعد من أخص خصائص التوحيدى .

- المقابسات:

يشتمل الكتاب على ١٠٦ مقابسة أو محاوراة بين العلماء تدور حول التعاريف الفلسفية والطبيعية والمنطق والإلهيات وموضوعات أخرى. (١)
ومعنى هذا أن موضوعات الكتاب متنوعة تتناول موضوعات فلسفية صرفة كالحائق والمخلوقات، والتوحيد والتنزيه، والروح، والمادة والعالم العلوى والعالم السفلى، إلى جانب موضوعات أخلاقية ونفسية مثل الصداقة والصدىق وفلسفة الحب والعشق، وحقيقة الضحك وأسبابه، وكتمان السر وإفشائه،

(١) انظر: ماكس مايرهوف: من الإسكندرية إلى بغداد، بحث مترجم فى كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بلوى، مكتبة النهضة القاهرة، ١٩٤٠ - ص ٨٩ .

وشرعية الرقى والعزائم، وهناك موضوعات فكرية أخرى متفرقة، صاغها التوحيدى فى قالب أدبى شيق بما يوضع أنه كان واحداً من أولئك «الأدباء الفلاسفة» أو «الفلاسفة الأدباء» فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

- الهوامل والشوامل :

يشتمل الكتاب على أسئلة فى موضوعات أدبية ولغوية وفلسفية وكلامية، وجهها التوحيدى إلى صديقه مسكويه فأجاب هذا عنها . ومعنى (الهوامل) الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى و(الشوامل) الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها، وقد استعار أبو حيان كلمة (الهوامل) لأسئلته المبعثرة التى تنتظر الجواب، واستعمل مسكويه كلمة (الشوامل) فى الإجابات التى أجاب بها، فضبطت هوامل أبى حيان^(١) . هذه المؤلفات تبرز التوحيدى عالماً ومفكراً موسوعياً، إذ لم يقف فيها عند الفلسفة والأدب، بل امتد أيضاً إلى الفقه والشريعة والكلام والتصوف والأخلاق والاجتماع، وقد نزع فى معظمها منزعاً عقلائياً واضحاً، والتزم أسلوب المحاوررة والمسامرة فجاءت كتبه سهلة المأخذ، بعيدة عن التكلف والتعسف بريئة من اللبس والغموض.^(٢)

(١) مقدمة أحمد أمين لكتاب «الهوامل والشوامل» القاهرة ١٩٥١ ص «ج» .

(٢) انظر: التوحيدى: المقابسات، تحقيق ونشر حسن السندي، المكتبة التجارية القاهرة،

١٩٢٩م، مقدمة المحقق، ص ١٨ .

وتأتى الآن إلى النقطة المركزية فى هذه الدراسة عن كتاب: الهوامل والشوامل، ذلك العمل المشترك بين التوحيدى ومسكويه، الذى نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر فى القاهرة سنة ١٩٥١، فنلاحظ أن تاريخ تأليفه يلى (الإمتاع والمؤانسة) ويسبق (المقابسات)، وهو ما أشار إليه التوحيدى فى المقابلة السابعة من كتابه (المقابسات) (١).

ويشتمل كتاب (الهوامل والشوامل) على مائة وخمس وسبعين مسألة طرحها التوحيدى على مسكويه، نلاحظ فيها مدى التنوع الشديد فيما بينها فهى تدور حول الإنسانيات والإلهيات والطبيعيات، كما نلاحظ مدى التفوق فى بعض أسئلة التوحيدى من حيث التنوع والعمق والدقة على بعض إجابات مسكويه .

وإذا كان القديما يميلون إلى نسبة هذا الكتاب إلى مسكويه، كما فعل البيهقى فى كتابه (تتمة صوان الحكمة)، إذ أشار إلى هذا العنوان معكوساً (الشوامل والهوامل) (٢)؛ فإن المحدثين، من ناحية أخرى، يغفلون عنوان الكتاب فى مؤلفات التوحيدى ومسكويه معاً (٣) فلم يرد ذكره مثلاً عند كل من السندي (٤)، وعبد الرزاق محبى الدين (٥)، وإبراهيم الكيلانى

(١) انظر: التوحيدى: المقابسات: م ٧ ص ١٤٦، وراجع أيضاً: مجلة تراث الإنسانية مجلد

١ عدد ١٠ ص ٧٩٣ .

(٢) انظر: البيهقى: تتمه صوان الحكمة، نشرة محمد شفيق، لاهور ص ٢٩ .

(٣) يراجع فى ذلك: بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربى، نقله إلى العربية الدكتور /

عبد الحلیم النجار، دار المعارف بمصر؛ والزركلى: الأعلام ١/٢٠٤ - ٢٠٥ و ٥/١٤٤

- ١٤٥ .

(٤) مقدمة المقابسات ص ١٨-١٩ .

(٥) أبو حيان التوحيدى: ص ١٨٤-٢٥٦ .

فى رسالته بالفرنسية، وترجمتها العربية، بيروت ١٩٥٧ فصل ٢، ولم يذكر لنا أحد منهم شيئاً عن نسخ من هذا الكتاب. ولكن الكيلانى يشير، بعد ذلك فى الطبعة المصرية، إلى كتاب (الهوامل والشوامل)، ويعدّه من مؤلفات التوحيدى، معتمداً فى ذلك على نص (المقايسات) (١). وتذبذب بعضهم بين نسبة الكتاب إلى مسكويه أو التوحيدى، كما أشار إلى ذلك مؤخراً بيرجه، إذ يعدّه، مرة، من مؤلفات التوحيدى، ويعدّه، مرة أخرى، كتاباً مشتركاً للتوحيدى ومسكويه (٢).

لكن الأمر المؤكد أن كتاب (الهوامل والشوامل) هو كتاب التوحيدى ومسكويه معاً، وأن دور التوحيدى فى تحديد السؤال أكثر بروزاً فى تحديد طبيعة إجابة مسكويه، فلولا أسئلة أبى حيان لما كانت أجوبة مسكويه . وفى الحقيقة فإن كتاب (الهوامل والشوامل): «ليس كتاباً واحداً، بل هو كتابان لمؤلفين كبيرين: أسئلة من أبى حيان التوحيدى سماها (الهوامل) وأجوبة من مسكويه سماها (الشوامل)» (٣).

العلاقة بين التوحيدى ومسكويه:

كانت العلاقة بينهما علاقة تحد ومطالبة، وغلب عليها التوتر والمخاشنة. ومن المعلوم أن مسكويه كان يكبر التوحيدى بسنين قلائل، وقد عمر الاثنان طويلاً، وقد مات التوحيدى سنة ٤١٤ هـ، ومات مسكويه سن ٤٢١ هـ. وبسبب

(١) إبراهيم الكيلانى: أبو حيان التوحيدى، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٠ .

(2) Marc Berge, Essai sur la personnalite morale et intellectuelle d, Abu Hayyan al Tawhidi; P. P. 111 - 112.

(٣) مقدمة أحمد أمين لكتاب (الهوامل والشوامل)، القاهرة ١٩٥١ ص: «ج».

أن أحد أسباب التوتر والصراع بينهما، وتحين التوحيدى الفرص لمهاجمة مسكويه وذمه صراحة هو الغيرة من مسكويه الذى حقق شهرة بالعلم أكبر من شهرة التوحيدى، وحالفه الحظ دائماً، وأغدق الكبراء عليه بسخاء، كما فعل عضد الدولة عندما اختاره ليكون خازن بيت المال وخازن الكتب ومن هنا عرف «بالحازن»، وعلى حد تعبيرنا الحديث وزيراً للمالية ومديراً لمكتبته، وهذا يجعله أغنى، على حين تعددت نواحي التوحيدى وتميز بسعة الأفق، ورغم ذلك فقد فشل فى أن ينال عطايا ابن سعدان، وأبى الوفاء المهندس، وحتى مسكويه نفسه، ولاعجب بعد ذلك إذا وجدناه كشير الشكوى من الزمان والأحوال والناس، وعبر عن ذلك بوضوح فى رسالته الموسومة (فى الصداقة والصدق) وردده كثيراً فى (المقاسبات)، و(البصائر والذخائر) و(الإشارات الإلهية).

ويبدو أن السبب فى اختيار التوحيدى مسألة مسكويه، وعنده من هو أعلم منه، كأبى سليمان السجستاني المنطقى، والفيلسوف يحيى ابن عدى، وأبى سعيد السيرافى عالم النحو والمنطق، والعالم على بن عيسى الرماني وغيرهم ممن تلقى العلم على أيديهم، لم يكن مصادفة بل كان مقصوداً للتندر والاستخفاف به، وإظهار عجزه الفكرى، خاصة بعد أن باء طمع التوحيدى فى علم ومال مسكويه بالفشل، فوصفه بالبخل والغباء .

وقد وافق ابن سينا التوحيدى على ذلك فقد قال فى بعض مسائله: «إنه كان عسير الفهم». وننتهى من ذلك إلى أن مسكويه إذا كان قد برع فى الأخلاق، إذ ألفت فيها كتابه «تهذيب الأخلاق»، إلا أن تفكيره قد شابته القصور فى باب الرياضة والإلهيات ونحو ذلك. أما التوحيدى فقد تميز بالعقلية الموسوعية، وتعددت نشاطاته الفكرية فهو فيلسوف، ومتكلم، وعالم لغة، ومتصوف .

ويبدو أن ثمة أثراً للجاحظ وراء هذه الطريقة في طرح الأسئلة إذ كان التوحيدى من أكبر المعجبين به، وقد أشاد ببلاغته وعلمه وسمو أخلاقه، ووصفه بأنه «واحد الدنيا» الذى لا ضرب له فى دنيا البلاغة والإنشاء، بدليل أنه قد حذا حذوه، ونهج نهجه فى بعض أعماله، خاصة كتاب (الهوامل والشوامل) الذى يتشابه مع كتاب الجاحظ (التربيع والتدوير).

وإذا كان كتاب (التربيع والتدوير) هو مجموعة من الأسئلة الموجهة من الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب بهدف كشف جهله وتعجيزه والاستخفاف به، دون أن يجاب عنها، كما تغلب على أسئلته الفكاهة والاستهزاء، إلا أن كتاب (الهوامل والشوامل) يختلف عن ذلك بجمعه بين الأسئلة وإجاباتها، وابتعاده عن السخرية والفكاهة المرة، واتسامه بالوقار .

ولاشك أن حب الاستطلاع الذى ميز التوحيدى، ورغبته فى البحث والمعرفة، ودهشته لكل شىء، وربطه عملية التفلسف بفعل التساؤل والحوار، يؤدى بنا فى نهاية الأمر إلى أن نطلق عليه إسم «فيلسوف التساؤل» .

لقد تميز التوحيدى بالعقلية الموسوعية التى تسعى إلى الإلمام بكل شىء، ولعل هذا هو الذى دفعه إلى إثارة الكثير من المشكلات الفلسفية بسؤال مسكويه فى كل ما يعن له حول صفات الله، والتوحيد والتشبيه، والجبر والاختيار، والموت والحياة والمعاد، والوجود والعدم، والعقل والشرعية.. إلخ، والمشكلات الخلقية والنفسية فيتساءل مثلاً عن العلم والعمل، والسرور والألم، والرؤى والأحلام، والحفظ والنسيان، والسبب فى حب الإنسان الرئاسة والسلطة، ولماذا يتنادى الناس إلى الزهد فى الدنيا مع شدة الحرص عليها، ومالذى يحرك الزنديق والدهرى على الخير وإيثار الجميل، وهو يهتم أيضاً بالكثير من المشكلات الطبيعية فنراه يتساءل عن الحكمة من وجود الجبال، ولم صار ماء البحر ملحاً؟ ولم صار البحر فى جانب من الأرض؟، ولماذا لا يجرى الثلج فى

الصيف؟، ولم كان صوت الرعد إلى آذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا؟. وهو فى اللغة والتفرقات اللفظية يتساءل عن الفرق بين الصمت والسكوت، وبين العجلة والسرعة، وبين السرور والفرح، ولم كان اسم أخف عند السماع من اسم؟ ولم صارت بلاغة اللسان أعسر من بلاغة القلم؟. وهناك عشرات أخرى من تساؤلات التوحيدى فى أمور تاريخية وجغرافية واجتماعية وفنية وجمالية تدلنا على كثرة اطلاعه، وسعة أفقه، وغزارة معارفه وتنوع معلوماته .

وإذا كانت أسئلة التوحيدى قد شهدت تنوعاً فى موضوعاتها ومجالاتها السابقة، إلا أنها، من ناحية أخرى، تراوحت بين البساطة والعمق، وبين الطول والقصير. فمن أمثلة الأسئلة السهلة البسيطة: لم كان القصير أخبث، والطويل أهوج؟، ولم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر، وآخر يزيد على عمره؟، ما السبب فى اشتياق الإنسان إلى ماضى من عمره؟، لم قبح الثناء فى الوجه، وحسن فى المغيب؟. لم اشتدت عداوة ذوى الأرحام والقربى حتى لم يكن لها دواء؟ وهل كان الجوار فى شكل هذه العداوة أم لا؟، ولم صارت غيرة المرأة على الرجل أشد من غيرة الرجل على المرأة؟. ومن أمثلة الأسئلة القصيرة جداً: ما الحكمة فى وجود الجبال؟، وما الدليل على وجود الملائكة؟

وإلى جانب أمثال هذه الأسئلة السهلة والقصيرة، نلتقى بأسئلة أخرى تتميز بالعمق والبعد الفلسفى ومن ذلك: ما سبب الجزع من الموت؟ وما الاسترسال إليه؟ وأى المعنيين أجل؟، لم لم يرجع الإنسان بعد ماشاخ وخرف كهلاً، ثم شاباً ثم غلاماً ثم طفلاً كما نشأ؟ وعلام يدل هذا النظم؟، ما السبب فى استحسان الصورة الحسننة؟، ما علة كثرة غم من كان أعقل، وقلة غم من كان

أجهل فى الأفراد والأجناس؟. لم كلما شاب البدن شب الأمل، وهل اشتمل الأمل على مصالح العالم، وإن كان مشتملاً فلم تواسى الناس بقصر الأمل، وقطع الأمانى؟، لم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به وآثره وكدح فيه مع ما يرى من صروفه ونكباته وزواله بأهله؟، لم صار اليقين إذا حدث وطراً لا يثبت ولا يستقر؟ والشك إذا عرض أرسى وريض؟

والتأمل فى المجموعات التى سبقت من الأسئلة يجد أن أغلبها أسئلة فلسفية تتجه إلى محاولة التعرف على أصل كل شئ، وهويته، وحكمته، ولذلك يستخدم فيها أداة الاستفهام «لم»، دون محاولة التساؤل عن كيفية الشئ، أى خصائصه، ومصير هذه الخصائص، وهو ما يميز الطابع العام للعلم. بل نجد التوحيدى يتساءل عن «التساؤل» نفسه، دليل ذلك قوله: «لم صارت أبواب البحث عن كل شئ موجود أربعة، وهى: هل، والثانى ما، والثالث أى، والرابع لم؟» (١).

ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتساءل، أيضاً، عن طبيعة «المعدوم»، فيقول: «ما المعدوم؟ وكيف البحث عنه؟ وما فائدة الاختلاف فيه؟ (ولماذا) أطال المتكلمون الكلام فى اسمه ومعناه؟ وهل لقولهم محصول؟ فإنى مارأيت مسألة لا يمكن من نفسها غيرها» (٢).

إن أسئلة التوحيدى، فى هوامله، هى فى حقيقتها أسئلة ماهية، لأسئلة وجود .

(١) الهوامل والشواهد: المسألة رقم ١٥٩ ص ٣٤١.

(٢) المصدر السابق: مسألة رقم ١٦٠، ص ٣٤٣.

أما إجابات مسكويه، في شوامله، فهي مما تردد في مؤلفاته الأخرى، وهي تفسر كل شيء على أساس نظرية النفوس الثلاثة نباتية أو حيوانية أو ناطقة، أو على أساس الأخلاط والعناصر الأربعة. وقد تنوعت الإجابات بتنوع الأسئلة، فتارة تكون طويلة مفصلة، وتارة تكون قصيرة موجزة، وتارة يتصرف في الأسئلة فيثبت بعضها كما وردت في الأصل، أو يترك قسماً منها- يعجز عن الإجابة عليه .

ويعد.. فهذا الكتاب يعتبر وثيقة اجتماعية وعلمية صادقة وهامة تدل على الحياة الاجتماعية، والثقافة السائدة في المجتمع الإسلامي إبّان القرن الرابع الهجري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كتاب « الهوامل والشوامل » في الحقيقة كتابان لمؤلفين كبيرين ، أسئلة من أبي حيان التوحيدى سماها « الهوامل » ، وأجوبة من مسكويه سماها « الشوامل » ، ومعنى « الهوامل » الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى . و « الشوامل » الحيوانات التي تضبط الإبل الهوامل فتجمعها ، وقد استعار أبو حيان كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة التي تنتظر الجواب ، واستعمل مسكويه كلمة الشوامل في الإجابات التي أجاب بها فضبطت هوامل أبي حيان .

وقد رأينا كتاب « الهوامل والشوامل » مهملًا في ثنايا الكتب في مكتبة « أياصوفيا » بالأستانة لم يلق إليه أحد باله حتى للمستشرقون ، وقد عثر عليه الأستاذ « محمد بن تاويت الطنجى » أثناء بعثته من الجامعة العربية إلى الأستانة لتصوير الكتب القيمة ، فكان هذا الكتاب مما صورته منها .

فلما اطلمت عليه في القاهرة بعد حضوره أدركت قيمته ، وأنه يكشف عن نواح هامة من النواحي المجهولة من أبي حيان ومسكويه ، فأثرت نشره لإكمال هذا النقص .

ولست أطيل على القارىء في ترجمة أبي حيان التوحيدى ومسكويه ، فقد ترجم له ترجمة وافية الأستاذ للرحوم القزوينى في رسالة له وضعها عن أبي حيان بالفارسية . وترجم له أيضاً ترجمة وافية الأستاذ « عبد الرازق عبيد الدين » في كتابه عن أبي حيان . وكتاب روضات الجنات ترجم لمسكويه ، وكذلك الأستاذ

« عبد العزيز عذرت » في رسالته الجامعية عنه ، فلا نذكر هنا إلا بعض ما يدل هذا الكتاب على شخصيتهما .

فأولاً : يدل كتاب « الهوامل » على أن أبا حيان شخصية فلسفية طُلّعة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها سواء كانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية . ففي كل ذلك يسأل ، وكثيراً ما تثير المسألة حولها جملة مسائل فيسأل عنها أيضاً ، حتى ليسأل في دقائق الأمور مثل البيت الخالي من السكان كيف يسرع إليه الخراب أكثر من البيت المسكون وكان المظنون العكس (ص ٢٦٠) .

ثانياً : إن أسلوبه في أسئلته أسلوب أدبي فني رائع يمتاز حتى عن أسلوب مسكويه الفلسفي الذي يحوطه الغموض .

وثالثاً : إن أبا حيان كثير الشكوى من الزمان والسكان ، والشكوى من المجتدين قد تثير في النفس عاطفة الحنو والرحمة ، وقد تثير عاطفة التفرز والاشتمزاز ، وهي في ذلك كله تختلف باختلاف الشكل وأساليب الاستجداء ، فقد يكون الشكل باعماً على العطف والرحمة ، وقد يكون باعماً على النفور ، وكذلك أسلوب الاستجداء فقد يكون أسلوباً رقيقاً ينتخرج العطف ، وقد يكون أسلوباً جافاً مشوباً بالإدلال والتعاطف فيثير السخط ويبعث على الحرمان . ويظهر أن أبا حيان التوحيدي كان من القليل الثاني ، يريد أن يستعلي على المشول وأن يفهمه أن هذا حق لا إحسان فنفر من استجداهم منه . يظهر ذلك في نفور الصاحب ابن عباد منه ، وحرمان الوزير ابن سعدان له ، وتفرغ مسكويه له من الشكوى ، فقد شكأ أبو حيان كثيراً في أكثر ما ألف ، شكأ في الإمتاع والمؤانسة لأبي الوفاء البوزنجاني ولابن سعدان ، وشكأ في الصداقة والصديق ، والمقابسات ، والبضائر والدخائر وشكأ في الإشارات الإلهية ، وتقم على الناس كثيراً وعد نفسه غريباً بين المواطنين في خلقه وعلمه فأحرق كتبه حتى لا يفهم بها ، وشكأ كثيراً لمسكويه

فقرعه مبيكويه على شكواه إذ قال له (ص ١، ٢) « قرأت مسائك التي سألتني أجوبتها في رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم ، فانظر - حفظك الله - إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسل ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك ، وتبكي على باك ، ففي كل حلق شجي ، وفي كل عين قذى ، وكل أحد يلتمس من أخيه ما لا يجده أبداً عنده ، ولو كان حد الصديق ما رسمه الحكماء حين قالوا : صديقك آخر هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص ، فهيات منه إني لا أظن الأبلق العقوق ، والمنقاء المُدْرِب والكبيرت الأحمر أفسرُ مطلباً ، وأقرب وجوداً منه .

وبعد فإني أرى لك إذا أحببت معايشة الناس ومخالطتهم وآتت لذة العمر وطيب الحياة أن تسمع أخاك ، وتغالط فيه نفسك ، حتى تغضى له عن كل حق لك ، وتزى له عليك ما لا يراه لنفسه ، وأن تأخذ بأدب بشر فإنه نعم الأدب وموعظة النابغة فنعمت الموعظة . ولا تعود عشيرك وجليسك استماع شكواك فيأنس به ثم لا يشكيك ، ولا تكثر عليه من العتب فيألفه ثم لا يمتبك .

هذا إن لم يكن عنده لك أكثر مما عندك له ، ولم تهجم منه على صدر مُحش وغراً وقلب ممتلى ديمناً ، فإنك حينئذ تهيج بلابله ، وتثير ضغائنه ، وتذكره ما تناساه كرمًا أو تكرمًا ، وطواه حلاً أو تحلاً ، وهذا إن أنصفك فلم يتسرع إليك ، وصدقك فلم يتكذب عليك ، ومن عرف طبع الزمان وأهله ، وشيمة الدهر وبنيه لم يطمع في الحال ولم يتعرض للمتنع ، ولم ينتظر الصفو من معدن الكدر ، ولم يطلب النعيم في دار الحنة . وأنت إذا لم تجد من نفسك وهي أخص الأشياء بك مساعدة لك على رضاك ، ولا من أخلاط بدنك وهي أقرب الأمور إليك موافقة لهواك ، فكيف تلتمسها من غيرك وتطلبها من سواك ؟ استعد بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وبلايسه ، واستعن بالله يعنك ،

واستكفه يكفك ، ولا قوة إلا به . هذا مبلغ ما رأيت من وعظك وحضرتي من نصحك ، وأرجو أن يوافق ما توخيته لك ورجوته فيك من القبول والامثال ، إن شاء الله .

رابعاً : يدل الكتاب على أن أبا حيان كان واسع الأفق متعدد النواحي ، وهو في ذلك أيضاً يفضل مسكويه ، إذ كان أبو حيان فيلسوفاً مع الفلاسفة ، ومتكلماً مع المتكلمين ، ولغوياً مع اللغويين ، ومتصوفاً مع المتصوفين ونحو ذلك ، يتسع أفقه حتى يشمل البحث في ذات الله وصفاته ، كما ورد في المسألة (١٦) (ص ٥٥) « وعلى ذكر الله تعالى ، بم يحيط العلم من المشار إليه باختلاف الإشارات والعبارات ؟ أهو شيء يلصق بالاعتقاد ؟ أم هو مطلق لفظ الاصطلاح ، أم هو إيماء إلى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف ؟ أم هو غير منسوب إلى شيء يعرفان ؟ فإن كان ممنوعاً بنعت فقد حصره الناعت بالنعت . وإن كان غير ممنوع فقد استباحه الجهل ، وزاحم المدوم . ولا بد من الإثبات إذا استحال النفي ، وإذا وقف الإثبات والنفي على المثبت النافي قد سبق إذن كل إثبات ونفي . فإن كان سابقاً كل هذه الألفاظ وجميع هذه الأغراض فما نصيب المعارف ؟ وما بقية ما ظفر به الموحد ؟ .

هيهات هيهات ! اشتد اللغظ ، وكثر الغلط ، ورجع كل إلى الشطط ، وقات الله الفهم والفاهم ، والوهم والواهم ، وبقى مع الخلق علم مختلف فيه ، وجهل اصطلاح عليه ، وأمر قد تُبرّم به ، ونهى قد ضُجر منه ، وحاجة فاضحة ، وحجة داحضة ، وقول مُزوّق ، ولفظ منق ، وعاجل مشق ، وآجل معوق ، وظاهر مُلقق ، وباطن ممزق . إلى الله الشكوى من غلبات الهوى ، وسطوات البلوى ، إنه رحيم ودود .

وكان مسكويه أضيّق منه ألقاً ، كما كان أسوأ منه تعبيراً ، فليس له مجال كبير ، يجوز فيه ويصول إلا في الفلسفة ، وحتى في الفلسفة لا يحسن الإلهيات

ولما وراء المادة ونحو ذلك ، وإنما يحسن الأخلاق إذ ألفت فيها كتابه «تهذيب الأخلاق» والتدبير المنزلى ، والناحية العملية فى فلسفة أرسطو لاقى غيرها ، ويدل على ذلك قصوره فى عداها .

ويظهر أن سن أبى حيان ومسكويه متقارب إلا أن مسكويه يكبره قليلا ، ولكن كانت شهرة مسكويه بالعلم أكبر من شهرة أبى حيان . وكان أغنى لأنه كان خازن بيت المال ، وخازن الكتب لعضد الدولة وعلى حد تعييننا الحديث وزيراً للمالية ومديراً لمكتبته ، وهذا يدرك عليه كثيراً ، فيظهر أن طمع أبى حيان فى علمه وماله قد باء بالتشل فوصفه بالبخل والغباء ، إذ قال فيه فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ١ / ٣٥ ، ٣٦ « وأما مسكويه ، فقير بين أغنياء ، وعيى بين أعيان ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام (صنف الشرح لإيساغوجي) وقاطع تورياس من تصنيف صديقنا بالرعى . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبى الحسن العاصرى ، وصحبه معى ، وهو الآن لائذ بابن الحجار ، وربما شاهد أبى سليمان ، وليس له فراغ ، ولكنه محس فى هذا الوقت للحسرة التى لحقت به فيما فاتته من قبل . فقال : يا عجيباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيمياء الرأزى ، مملوك الهمة فى طلبه ، والحرص على إصابته ، مفتوناً بكاتب أبى زكريا ، وجابر بن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائفة ، والحركات دائمة ، والقرص بروق تأتلق ، والأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على قوائها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العاصرى الرعى خمس سنين جمعة ، ودرس وأملى ، وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التوانى الصاب والطقم ، ومضغ بضمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع اللامة

من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد فهو ذكى حسن الشعر ، تقى اللفظ ،
وإن يقى فيسأه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ،
وإنفاق زمانه ، وكذبته وقلبه في خدمة السلطان واحترافه في البخل بالذائق
والقيراط والكسرة والخيرفة ؛ نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وإيثار الشح
بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ؛ وهذا هو البقاء للصوب على
هامة من ملى به ، والبلاء المصوب بناصية من غلب عليه .

ولا ندرى كيف وصفه بالذكاء والنباه معاً ، إلا أن يكون يريد بوصفه
بالذكاء في بعض مواضع ، وفي بعض فروع من العلم كالأخلاق والطب ، وغيباته
في بعض المواضع كالإلهيات والمنطق ، وقد واقفه على ذلك ابن سينا فقد قال ابن
سينا في بعض كتبه : إنه أتى إليه جوزة كانت في يده وقال : ابن لى مساحة هذه
بالشعيرات ، فألقى إليه ابن مسكويه أوراقاً وقال له : أصلح بهذه أخلاقك حتى
أجيئك إلى بعض ما تريد . ونستخلص من هذه القصة تقصير مسكويه في باب
الرياضة ، ومهارته في الأخلاق .

وقد قال ابن سينا أيضاً في بعض مسائله : إن هذه المسألة حاضرت بها
أبا على مسكويه فاستعادها كرات ، وكان عسر الفهم ، وتركته ولم يفهما على
الوجه الصحيح .

وقد عمر الإثنان طويلاً ، قدمات أبو حيان سنة ٤١٤ هـ عن نيف وتسعين
سنة كما ذكر القزويني . وقال في روضات الجنات إن أبا على مسكويه عاش
طويلاً حتى سُم الحياة ، ولم يعد يقدر على الحركة ، وفي بعض أشعاره إشارة
إلى ذلك وقد مات سنة ٤٢١ هـ فإن كان مسكويه يكبر أبا حيان فإعما يكبره
بستين قلائل ، ولكن كان له من الجاه والغنى ما لفت إليه الأنظار أكثر من
أبي حيان .

ويظهر أيضاً أنه لما لم يجد بغيته العلمية والمالية عند مسكويه أتجه إلى أبي سليمان المنطقي الذي يشاركه في البؤس ، ولكن يفوقه في العلم ، وكان اتصاله هذا يعد اتصاله بمسكويه بدليل ما جاء في كتاب المقابسات من أنه سأل أبا سليمان المنطقي عن مسألة فأجابه عنها إجابة غير التي ورد ذكرها في كتاب «الموامل والشوامل» ، وقد أعجب بعقلية أبي سليمان وعلمه أكثر جداً مما أعجبه مسكويه ، وقد لازمه طويلاً ووصفه بالعلم والذكاء في الامتناع والمؤانسة إذ يقول : ١ / ٣٣ « أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً ، وأقصرهم غوصاً ، وأصنهم فكراً وأظفرهم بالدر وأوقفهم على النزر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة من العجبة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخطاير ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » .

واستفاد منه كثيراً . وكان أبو حيان وسيطاً له عند الوزير بن سعدان ، إذ منحه مائة دينار يقضى بها دينه في أجرة بيته كما ذكر في الإمتاع ١ / ٣١ .

والمقابسات أغلبها مما استفاده أبو حيان من أبي سليمان في مجالسه .

ويظهر أن أبا حيان قد وجه إلى مسكويه أسئلته كلها دفعة واحدة ، فأجاب مسكويه عنها إجابات متفرقة عن كل سؤال جواب ، وأن أبا حيان عنون كل سؤال بمسألة خلقية أولوية أو زجرية أو اختيارية ، ويعنى بالاختيارية ما كانت المسألة فيها من اختيار الشخص أن يفعله أو لا يفعله ، كأن يكون غنياً فيدخل أو يكرم ، وأن يكون غصوباً فيغضب أو يحلم ، ويعنى بالزجرية للمسائل التي يسأل فيها لزجر المرتكب عن ارتكابها ، وهكذا . وأن مسكويه قد تصرف في الأسئلة ، فأحياناً لا يثبتها كما وردت في الأصل ، بل أحياناً يشير إلى قسم منها ويترك القسم الآخر ، كما في المسألة الرابعة إذ يقول (ص ٢٦) « ثم اتبعت المسألة من تنقص الإنسان وذمه وتوبيخه ، ما أستغنى عن إثباته » .

وكما في المسألة (٣٥) ص ١٠٨ « وحكاية طويلة في إثر هذه المسألة عن شيخ

فاضل مقرظ وجوابات له « وفي المسألة (٦٨) ص ١٨٠ » ثم حكيت حكايات ليس لها غناء في المسألة فلتشتغل بالجواب .

وفي المسألة (٨٣) ص ٢٠١ » ثم حكيت الحكاية عن ابن إسماعيل في قصة الزعفرانى .

وفي المسألة (٨٦) ص ٢٠٨ » إلى ما يتصل به من كلامك مما لم أحكه ، إذ كانت المسألة هي في قدر ما خرج من حكايتي .

بل أحياناً يحذف من السؤال ما لا يستحسنه أو ما يعجز عن الإجابة عليه كما في ص ١٨٢ .

ويظهر أننا إذا أردنا أن تورخ كتب أبي حيان المتداولة بيننا وجدنا أولها الهوامل ، ولا ندرى موضع كتاب الإشارات الإلهية من هذه الكتب إلا أننا نستنتج أنه ألقه متأخراً لنضج تعبيره ومعانيه ، وتمتعه في التصوف . ثم الإمتاع ، ثم الصداقة والصديق ، وفي غضون ذلك ألف البصائر والذخائر لأنه ذكر في مقدمته أنه بدأ به سنة ٣٧٥ وأتمه بعد خمسة عشر عاماً . ثم المقابسات لأنه ذكر الهوامل والشوامل في المقابسات ، وذكر أنه ألف لابن سعدان كتاب الإمتاع والمؤانسة سنة ٣٧٤ وألف الصداقة والصديق لابن سعدان أيام كان وزيراً وكانت مدة وزارته من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ هـ وأياً ما كان فالكتاب عظيم القيمة ، إذ يدل على نوع المشاكل التي كانت تشغل بال المفكرين في القرن الرابع الهجرى في العراق ، كما تدل في كثير من الأحيان على الحالة الاجتماعية التي كان يحياها الناس .

وكثير من الأسئلة والأجوبة كان يحتاج إلى تعليقات طويلة ، أو إلى أجوبة غير التي أجب بها طبقاً لعم النفس وعلم الاجتماع كما وصلا إليه اليوم ، ولكن

أينما أن نفرق هذا الكتاب بالتعليقات ، وتركنا الحرية لكل قارىء في التعليق عليه حسبما يرى ، وعلى قدر علمه بهما .

ومن بديع أسئلته سؤاله رقم ١٥٣ عن المسألة الواحدة يكون فيها حكمان من قبيين : أحدهما يحلها والآخر يجرمها . ومن بديع الجواب أن المسألة الواحدة قد يختلف حكمها باختلاف الزمان والمكان والمادة ومصالح الناس . فقد تكون المسألة حلالة في زمان ومكان ، حراما في غيرها ؛ كالذي روى أن أبا حنيفة أفتى بأن من غصب ثوبا صبغه بالصبغ الأسود كان قد قلل قيمته ، بينما أفتى أبو يوسف بأن من صبغه صبغاً أسود فقد زاد من قيمته . والسبب في ذلك أن أبا حنيفة أفتى في زمان لم يتخذ فيه العباسيون السواد شعاراً لهم . وأفتى أبو يوسف في زمان اتخذ فيه السواد شعاراً .

ومن بديع الجواب أيضاً أن الحكم يدور مع المصلحة ، فقد تكون المصلحة موجبة للحل أحياناً ، وقد تكون موجبة للحرمة أحياناً أخرى . ومن الأقوال الشائعة أن الضرورات تبيح المحظورات .

وينهم من هذا أن الاجتهاد جائز ولو أدى إلى مخالفة النص .

ومن بديع الجواب ثالثاً ما قرره مسكويه من أن الاجتهاد قد يستحسن لذاته ، كضرب الكرة بالصولجان ، لا يضر فيه أن يخطئ الكرة ولا ينفع أن يصيبها . وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والإصابة لأن غرضه من أمره الرياضة بالحركة . وكذلك الحكم إذا دفن في بركة دفيناً وأمر الناس بطلبه والبحث عنه ، وغرضه في ذلك جد الباحثين وتنشيطهم ليعرف مقادير اجتهادهم ، فقد حصل المقصود وجدوا الدفين فيما بعد أم لم يجدوه . وكما يطلب من التعلم حل نظريات أو تمرينات هندسية أو مسائل عويصة في التريية ، فإن الغرض يحدث من حلها ؛ لأن الغرض هو تمرين الذهن في حل هذه المشكلات وقد حصل .

وهو نظير جديد — فيما نعلم — في قيمة الاجتهاد .

وسؤال آخر وهو رقم ١٤٧ يدل على أن أبا حيان قد يُسألُ من طالب آخر ، فيحيل السؤال على مسكويه بعد أن يجيب هو بنفسه ، ليرى هل يجيب مسكويه نفس الإجابة ، أو يجيب إجابة أخرى فيتمدد الجواب ، وفي ذلك مصلحة . وقد سأل أبا حيان سائل : هل تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ؟ فإن لم تخرج فكيف يعلل ذبح الذبائح ، وإيجاب الدية على العاقلة ؟ وقد أجاب مسكويه بأن من المحال أن تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ، لأنها وضعت لمصلحة الناس ، فإن وجد ما يخالف العقل فذلك شيء ظاهرى فقط ، وإذا بحث تبين أنه لا يخالف العقل ، نعم قد يخالف المؤلف وما اعتاده الناس ، ولكن لا يخالف العقل ، فذبح الذبائح قد يكون فيه إضعاف لها ولكن فيه تقوية للإنسان وصحة له ، ووجوب الدية على الساقلة يزيد في الرباط بين القبيلة ، ويجعل كل إنسان مسؤولا عما يعمله أحد أفراد قبيلته ، وليس ذلك مخالفا للعقل البشرى بتاتا .

وقد دلنا السؤال والجواب على أن في عصر أبي حيان ومسكويه جماعة من المانوية يثيرون الشكوك بين العامة ليعدلوا بهم عن الدين الصحيح . وقد وقف أبو حيان ومسكويه في وجوههم وأمثالهم .

وقد أجاب مسكويه في هذا الكتاب عن أسئلة كانت الإجابات عليها متفقة مع ما عرف في زمانه . ولكن العلم تقدم ، وأصبح ما كان مجهولا له معلوما عندنا ، فقد أجاب إجابات من علم النفس تكون أحيانا غامضة ، ولكن تقدم هذا العلم تقدما كبيرا جعل من الممكن الإجابة عنها إجابات خيرا مما أجاب ؛ ولكن لم نرد أن نفرق الكتاب بمثل هذا . ونظير ذلك ما أجاب عنه في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية وغيرها . فالعلم اليوم خير من حال العلم في زمانه . خذ لذلك مثلا السؤال الذى سأله أبو حيان عن أن السحاب يبرق ويرعد ، فرى

البرق قبل أن نسمع الرعد (ص ٣٦٥) وهي ملاحظة صحيحة ، وقد أجاب مسكويه
إجابة غلطا ، وهي ظنه أن الهواء يستحيل إلى نور قزاه بمجرد ظهوره ، وأما الرعد
فينتقل حسب الموجات كأمواج البحر . مع أننا نعلم اليوم أن كلام من الرعد والبرق
ينتقل إلينا بواسطة موجات ، ولكن بعض الموجات أقصر من بعض ، كما نلاحظ
في موجات الإذاعة ، فبعضها قصير وبعضها طويل ، وبعضها سريع وبعضها
أسرع ، فكل من الرعد والبرق ينتقل إلينا عن طريق موجات ، ولكن أمواج
النور أسرع من موجات الصوت ، ولذلك يقولون إن الشمس تطلع ولكن
لا يصل إلينا ضوءها إلا بعد ثمان دقائق من طلوعها ، ودلت التجربة أن بعض
النجوم بعيد عنا جدا حتى لا يصل إلينا ضوءه إلا بعد مائة عام . وكانت هذه
الظاهرة إحدى الظواهر على مقياس البعد بيننا وبين نجم معين ، فتحسب كم من
الزمن وصل إلينا الضوء ، وما سرعة الضوء ، وعلى هاتين المقدمتين نبني حسابنا .
وكذلك الشأن فيما أجاب عنه في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ،
فقد كانت دائرة العلم في زمنه ضيقة ، فكانت تتسع كل يوم بالاستكشافات
الجديدة ، وخصوصا في القرون الأخيرة ، حتى أصبحت إجابات مسكويه إجابات
تستخرج الضحك أحيانا ، وقد كان من الممكن أن تقف عند كل إجابة لنبيين
ما يقوله العلم الحديث فيها ولكن منعت من ذلك موانع : أحدها أننا لم نرد أن
نفرق الكتاب الأصلي بإجاباتنا ، وثانيها أننا لا نستطيع أن ندعى العلم الواسع
بالنفس والاقتصاد والطبيعة والكيمياء كما فعل مسكويه ، فإن هذه العلوم اتسمت
حتى لا يستطيع أن ينوء بها إلا العصبة أولو القوة . وثالثها أننا لا نريد أن تقع في
الخطأ الذي وقع فيه مسكويه ، فسيقرأ الكتاب من بعدنا ، وسيكون العلم قد
تقدم أكثر مما عندنا ، فيضحك من إجاباتنا أحيانا كما نضحك من إجابة مسكويه ،
ولهذا نجترس حيث أهمل ، وتتقيد حيث أطلق .

ونلاحظ أن في المسألة رقم ١٧٥ سقطا إذ نرى في آخر الإجابة عليها كلاما لا يتصل بموضوع السؤال . وتبلغ المسائل الساقطة نحو خمس مسائل ، فقد جاء في الصفحة الأولى التي فيها عنوان الكتاب « كتاب الموامل والشوامل ويشتمل على مائة وثمانين مسألة ، الموامل من سؤال أبي حيان على بن محمد الصوفى ، والشوامل ووضع الكتاب والأجوبة من تأليف أبي على أحمد بن يعقوب بن مسكويه » فإذا كنا قد يلينا بفقد هذه المسائل وأجوبتها فله الحمد على ظفرنا بما عداها . ومما هو جدير بالذكر أن الصفحة الأولى قد كتبت عليها عدة تملكات كثيرة بعضها غير مؤرخ وبعضها مؤرخ ، ولكن لم يتضح تاريخه ، والذي نعنيها منها جميعا التملك الأول لأهميته التاريخية ونصه « ملكه من كرم الله تعالى محمد بن إبراهيم ... لطف الله به . وعنى عنه سنة ٤٤٠ » وهو يدلنا على قدم هذه النسخة .

فهذا الكتاب ، وكتاب المقابسات ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة صورة صادقة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر من مجل غنى ، وقرع عالم ، وغنى جهول ، وسلطان وزير ، وقتله من يد أمير ، وهكذا .

هذا إلى الطرف النادرة ، والنوادر المستملحة ، والقصص الممتع ، والرأى الحصيف ، ويشترك في هذا الأخير أيضاً كتاب « البصائر والذخائر » الذى سنتولى نشره قريباً إن شاء الله ، بالاشتراك مع الأستاذ « السيد أحمد صقر » .

والتسعة التى بأيدينا ، والتى نشرنا عنها هذا الكتاب هى فيما نعلم النسخة الوحيدة فى العالم حتى لم يرد ذكرها فى كتاب العلامة القاحص (بروكمان) ولم يرو لنا فى كتابه القيم الواسع عن نسخ من هذا الكتاب ، فإذا وقع فيه بعض الأخطاء

وبعض الغموض فعدرنا أننا لم نعلم عن نسخة أخرى في مكاتب العالم يصح أن نرجع إليها ، وأن نصح ما ورد من الأخطاء في هذه النسخة .

وقد شاركني في إخراج هذا الكتاب الأستاذ « السيد أحمد صقر » بل كان نصيبه من تصحيح الكتاب والتعليق عليه أكثر مما لي . فله جزيل الشكر على ما قام به .

وإنا نشكر كل الشكر من دلنا على خطأ أخطأناه ، أو زلة زلناها ، والله

الموفق للصواب .

أحمد أمين

٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ
١١ يناير سنة ١٩٥١ م

القاهرة في يوم الاثنين

